تفسير سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

ربع ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾

يقول تعالى آمرا عباده بتقواه، ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة: هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عَرصَات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ [الواقعة: ٤ ، ٥]. فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة. وقال ابن جرير: عن عَلْقَمَة فى قوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، قال: قبل الساعة.

وقال الشعبى: هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة. وقد أورد ابن جرير مُستَنَدَ مَنْ قال ذلك فى حديث الصُّور عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :«إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه، شاخص ببصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر». [وفيه]: « يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع. فيفزعُ أهل السموات وأهل الأرض، إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر، وهى التى يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [ص:١٥] فَيُسيِّر الله الجبال، فتكون سرابا وتُرج الأرض بأهلها رجا، وهى التى يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦ـ ٨]» قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذى يقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[1]. والغرض منه: أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة فى العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير. واحتجوا بأحاديث : روى الإمام أحمد: عن عمران بن حصين ؛ أن رسول الله ﷺ قال وهو فى بعض أسفاره ، وقد تفاوت بين أصحابه السير ، رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند الآية (٧٣) من سورة الأنعام .

حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المُطى، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما دنوا حوله قال: «أتدرون أى يوم ذاك؟ يوم ينادى آدم، عليه السلام، فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار فيقول: يارب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار، وواحد فى الجنة». قال: فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذى نفس محمد بيده، إنكم لمع خَلِيقتين ما كانتا مع شىء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس» قال: فسُرِّى عنهم، ثم قال: اعملوا وابشروا، فوالذى نفس محمد بيده، ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعيرة، أو الرقمة فى ذراع الدابة». رواه الترمذى والنسائى . وقال الترمذى: حسن صحيح [(١)].

طريق أخرى لهذا الحديث: روى الترمذى عن عمران بن حُصَيْن؛ أن النبى ﷺ قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، قال: أنزلت عليه هذه، وهو فى سفر، فقال: «أتدرون أى يوم ذلك؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسَدِّدوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية» قال: «فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كُمِّلت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرَّقْمة فى ذراع الدابة، أو كالشامة فى جنب البعير» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا، قال: ولا أدرى أقال: الثلثين أم لا؟ ورواه الإمام أحمد ، ثم قال الترمذى أيضا: هذا حديث حسن صحيح [(٢)].

وروى البخارى عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعين. فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبى ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد، ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود، وإنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «ثلث أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكبرنا. وقد رواه مسلم، والنسائى فى تفسيره [(٣)].

وروى الإمام أحمد عن عائشة، عن النبى ﷺ قال: «إنكم تحشرون يوم القيامة حُفاة عراة غرلاً». قالت عائشة: يارسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك». أخرجاه فى الصحيحين [(٤)].

---

(١) المسند (٤/ ٤٣٥) والترمذى (٣١٦٩) والنسائى فى الكبرى (١١٣٤٠) .
(٢) الترمذى (٣١٦٨) . وهو فى المسند (٤/ ٤٣٢) .
(٣) البخارى (٣٣٤٨، ٤٧٤١ ، ٧٤٨٣) ومسلم (٢٢٢/ ٣٧٩) والنسائى فى الكبرى (١١٣٣٩) .
(٤) المسند (٦/ ٥٣) والبخارى (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩/ ٥٦) .

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ اى: امر كبير، وخطب جليل، وطارق مفظع، وحادث هائل ، وكائن عجيب . والزلزال : هو ما يحصل للنفوس من الفزع، والرعب كما قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الاحزاب: ١١].

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسراً له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ اى: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتى هى اشفق الناس عليه، تدهش عنه فى حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل: «مرضع» وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ اى: عن رضيعها قبل فطامه. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ اى: قبل تمامه لشدة الهول ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ اى: من شدة الأمر الذى صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سكارى، ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، متبعاً فى قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال فى شأنهم واشباههم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ اى: علم صحيح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعنى الشيطان، يعنى: كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ اى: اتبعه وقلده ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ اى: يضله فى الدنيا ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ اى: فى شك ﴿مِنَ الْبَعْثِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والاجساد يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ اى: أصل بَرْئه لكم من تراب، وهو الذى خلق منه آدم، عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ اى: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع

إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة ـ قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ـ ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أى: كما تشاهدونها ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: وتارة تستقر فى الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها. عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: « إن خلق أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون عَلقة مثل ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب عمله وأجله ورزقه، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»[1]. وروى ابن أبى حاتم عن حذيفة بن أسيد ـ يبلغ به النبى ﷺ ـ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أى رب، أشقى أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص». ورواه مسلم بنحو معناه[2].

وقوله: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أى: ضعيفا فى بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا، ويلطف به، ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أى: يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أى: فى حال شبابه وقواه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، وهو الشيخوخة والهَرَم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف وضعف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة، وهى القحلة التى لا نبت فيها ولا شىء ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أى: تحركت وحييت بعد موتها ﴿وَرَبَتْ﴾ أى: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ اى: الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [أى: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فـ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] . ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أى: كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أى: يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم رمما، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٠] والآيات فى هذا كثيرة. وروى الإمام أحمد عن أبى رَزين العقيلى ـ واسمه لَقِيط بن عامر ـ أنه قال: يا رسول الله،

(١) البخارى (٦٥٩٤) ومسلم (١/٢٦٤٣) . (٢) مسلم (٢/٢٦٤٤) .

أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ : «أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْليا به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى، وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: «أما مررت بوادى أهلك ممحلا» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضرا؟». قال: بلى. قال: «فكذلك يحيى الله الموتى، وذلك آيته فى خلقه». ورواه أبو داود وابن ماجه[1].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلّدين فى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ ذكر فى هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾، أى: بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأى والهوى.

وقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ قال ابن عباس وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعى إليه، وقال مجاهد، وقتادة: لاوى عنقه، وهى رقبته، يعنى: يعرض عما يدعى إليه من الحق رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥]: وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أى: تميله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]. وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذى يجعله ممن يضل عن سبيل الله.

ثم قال تعالى : ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل ، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاه الله المذلة فى الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر همّه ومبلغ علمه ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أى: يقال له هذا تقريعاً وتوبيخا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ .ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ .إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٧ ـ ٥٠].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ

(١) المسند (٤/ ١١) وأبو داود (٤٧٣١) وابن ماجه (١٨٠) ،وحسنه الألبانى .

﴿ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۖ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شك، وقال غيرهم: على طرف. ومنه حرف الجبل، أى: طرفه، أى: دخل فى الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر، وإلا انشمر. وروى البخارى عن ابن عباس قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يَقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما، ونُتِجَت خيلُه، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تُنتَج خيله قال: هذا دين سوء[1]. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيُسْلِمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غَيْث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: «إن ديننا هذا لصالح، فتمسَّكُوا به». وإن وجدوا عام جُدوبة وعام ولاد سَوء وعام قحط، قالوا: «ما فى ديننا هذا خير». فأنزل الله على نبيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ الآية. وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جُرَيج، وغير واحد من السلف، فى تفسير هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لِمَا صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر. وقال مجاهد فى قوله: ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أى: ارتد كافراً. وقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أى: فلا هو حَصَّل من الدنيا على شىء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها فى غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أى: هذه هى الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

وقوله: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهى لا تنفعه ولا تضره ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ. يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ أى: ضرره فى الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما فى الآخرة فضرره محقق متيقن. وقوله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ قال مجاهد: يعنى الوثن، يعنى: بئس هذا الذى دعا به من دون الله مولى، يعنى: ولياً وناصراً، ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر. واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب من يعبد الله على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾. وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، فى روضات الجنات. ولما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

---

(١) البخارى (٤٧٤٢) .

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ أى: بحبل ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أى: سماء بيته ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أى: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتى محمداً من السماء، ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك.

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى، وأبلغ فى التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]؛ ولهذا قال: ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ قال السدى: يعنى: من شأن محمد ﷺ، وقال عطاء الخراسانى: فلينظر هل يشفى ذلك ما يجد فى صدره من الغيظ.

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ ﴾ أى: القرآن ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى: واضحات فى لفظها ومعناها، حجةٌ من الله على الناس ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ أى: يضل من يشاء، ويهدى من يشاء، وله الحكمة التامة و الحجة القاطعة فى ذلك، ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين ـ وقد قدمنا فى سورة «البقرة» التعريف بهم، واختلافَ الناس فيهم ـ والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره؛ فإنه تعالى ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾، ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تُكِن ضمائرهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾ سجدة

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شىء طوعا وكرها وسجود كل شىء مما يختص به، كما قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال ها هنا: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ أى: من

الملائكة فى أقطار السموات، والحيوانات فى جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾: إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. وفى الصحيحين عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعى من حيث جئت»(١). وقال أبو العالية: ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بفىء ظلالهما عن اليمين والشمائل. وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم، كأنى أصلى خلف شجرة، فسجدتُ فسجدَت الشجرة لسجودى، فسمعتُها وهى تقول: اللهم، اكتب لى بها عندك أجراً، وضع عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخراً، وتقبَّلها منى كما تقبلتَها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ النبى ﷺ سجدة ثم سَجَد، فسمعته وهو يقولُ مثلَ ما أخبره الرجل عن قول الشجرة. رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن حبّان فى صحيحه(٢).

وقوله: ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أى: الحيوانات كلها. وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: يسجد لله طوعا مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أى: عمن امتنع وأبى واستكبر ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ قيل لعلى: إن ها هنا رجلا يتكلم فى المشيئة. فقال له على: يا عبد الله، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربتُ الذى فيه عيناك بالسيف. وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكى يقول: يا ويله. أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمِرتُ بالسجود فأبيتُ، فلى النار» رواه مسلم(٣).

ربع ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر؛ أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت فى حمزة وصاحبَيه، وعتبةَ وصاحبيه، يوم برزوا فى بدر(٤) ـ لفظ البخارى عند تفسيرها ـ ثم روى البخارى عن على بن أبى طالب أنه قال: أنا أول من يَجثُو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر:

(١) البخارى (٤٨٠٣) ومسلم (١٥٩/ ٢٥٠).
(٢) الترمذى (٥٧٩) وابن ماجه (١٠٥٣) وابن حبان (٦٩١ موارد).
(٣) مسلم (٨١/ ١٣٣). (٤) البخارى (٤٧٤٣) ومسلم (٣٠٣٣/ ٣٤).

علىّ وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخارى(١). وقال مجاهد فى هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث. وقال ـ فى رواية هو وعطاء فى هذه الآية: هم المؤمنون والكافرون. وقولُ مجاهد وعطاء: إن المراد بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، ويتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلانَ الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو حَسَن؛ ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أى: فصلت لهم مقطعات من نار. قال سعيد بن جبير: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمى.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أى: إذا صب على رؤوسهم الحميم، وهو الماء الحار فى غاية الحرارة. وقال سعيد بن جبير: هو النحاس المذاب، أذاب ما فى بطونهم من الشحم والأمعاء. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وكذلك تذوب جلودهم. وقال ابن عباس وسعيد: تساقط. وروى ابن جرير عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الحميم ليُصَب على رؤوسهم، فينفُذ الجمجمةَ حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما فى جوفه، حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان». ورواه الترمذى ، وقال: حسن صحيح (٢).

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال ابن عباس: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله، فيدعون بالثبور. وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قال سلمان: النار سوداء مظلمة، لا يضىء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. وقال الفُضيل بن عياض: والله ما طمعوا فى الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدى لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها، وتردهم مقامعها. وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولا وفعلا.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياذاً بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنَّكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة ـ نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة ـ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: تتخرق فى أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين أرادوا ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من الحلية ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أى: فى أيديهم، كما قال النبى ﷺ : «تبلغ الحِلْيَة من المؤمن حيث يبلغ الوُضُوء»(٣). وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: فى مقابلة ثياب أهل النار التى قصلت

(١) البخارى (٤٧٤٤) .
(٢) الطبرى (١٧/ ١٠٠) والترمذى (٢٥٨٢) وقال : « حسن صحيح غريب » .
(٣) مسلم (٢٥٠/ ٤٠) .

لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسُنْدُسه، كما قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[(١)].

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، كقوله: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا . إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يُروَّعون به ويقرعون به، يقال لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي: إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء في الصحيح: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النَّفَسَ»[(٢)]. وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الطريق المستقيم في الدنيا. وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول تعالى منكراً على الكفار في صَدِّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر.

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعا سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام. وقال مجاهد: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾: أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل. وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله. وهذه المسألة اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهَويه بمسجد الخَيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً، فذهب الشافعي إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار. وذهب إسحاق بن راهَويه إلى أنها تورث ولا تؤجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء. وتوسط الإمام أحمد فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعا بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: عامدا قاصدا أنه ظلم ليس

---

(١) البخاري (٥٤٢٦) ومسلم (٤/٢٠٦٧). (٢) مسلم (١٨/٢٨٣٥).

بمتأول. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ بِظُلْمٍ ﴾: بشرك، وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد، وقال العَوْفى، عن ابن عباس: ﴿ بِظُلْمٍ ﴾: هو أن تَستحل من الحرام ما حَرّم الله عليك من إساءة أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فَعَل ذلك فقد وَجَب له العذاب الأليم. وقال سعيد بن جُبَير: شتم الخادم ظلم فما فوقَه. وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكنْ هُو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤، ٥]، أى: دمَّرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء، ولذلك ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بأولهم وآخرهم» الحديث(١). وروى الإمام أحمد عن إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبدُ الله بن عمر عبدَ الله بن الزبير، فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحاد فى حَرَم الله، فإنى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنه سيلحدُ فيه رجل من قريش، لو تُوزَن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»، فانظر لا تكن هو(٢). وروى أيضا عن سعيد بن عمرو قال: أتى عبدُ الله بن عمرو بن الزبير، وهو جالس فى الحِجْر فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحادَ فى الحرم، فإنى أشهد لسَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش، ولو وُزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها». قال: فانظر لا تكن هو(٣).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، فى البقعة التى أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بَوأ إبراهيم مكانَ البيت، أى: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له فى بنائه. واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله» كما ثبت فى الصحيح عن أبى ذر: قلت: يا رسول الله، أى مسجد وُضِعَ أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أى؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»(٤).

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ الآيتين [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدمنا ذكر ما ورد فى بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا(٥). وقال تعالى هاهنا: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي﴾ أى: ابنِه على اسمى وحدى ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ قال مجاهد وقتادة: من الشرك ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أى: اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل بقعة من الأرض سواها، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أى: فى الصلاة؛

---

(١) البخارى (٢١١٨) .

(٢) المسند (٦٢٠٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح على علة فيه » .

(٣) المسند (٧٠٤٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) البخارى (٣٣٦٦) ومسلم (١/٥٢٠) .

(٥) راجع ذلك عند الآية (١٢٥) من سورة البقرة .

ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه فى غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفى الحرب، وفى النافلة فى السفر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أى: ناد فى الناس داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه. فَذُكر أنه قال: يارب، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبى قُبَيس، وقال: يأيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمعَ مَن فى الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شىء سمعه من حَجَر ومَدَر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «لبيك اللهم لبيك». هذا مضمون ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الآية: قد يَستدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا، لمن قدر عليه، أفضلُ من الحج راكبا؛ لانه قدمهم فى الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم، والذى عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكبا مع كمال قوته، عليه السلام. وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ يعنى: طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١]. وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أى: بعيد. قاله مجاهد، وعطاء، وغير واحد. وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم، حيث قال فى دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

قال ابن عباس: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والذبائح والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ قال ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وروى مثله عن أبى موسى الأشعرى، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وهو مذهب الشافعى، والمشهور عن أحمد بن حنبل. وروى البخارى عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه» قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء»[1]. وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذى ثبت فى صحيح مسلم عن أبى قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية»[2]. ويشتمل على يوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر، وقد

(١) البخارى (٩٦٩) .
(٢) مسلم (١١٦٢/١٩٧) .

ورد فى حديث أنه أفضل الأيام عند الله[١]. وبالجملة: فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، ففضله كثير على عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع فى ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه. وقيل: ذاك أفضل لاشتماله على ليلة القدر، التى هى خير من ألف شهر. وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالى ذاك أفضل. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان فى الأيام المعلومات: قال ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. ويروى هذا عن ابن عمر، وإبراهيم النَّخَعى، وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه.

قول ثالث: أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر. هذا إسناد صحيح إليه، وقاله السدى. وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذى قبله قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعنى به: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: إنها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبى حنيفة.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعنى: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى فى سورة الأنعام وأنها ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الآية [الانعام:١٤٣]. وقوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحى وهو قول غريب، والذى عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها[٢]. قال مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛ لأن الله يقول: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ : قال ابن وهب: وسألت الليث، فقال لى مثل ذلك. وقال مجاهد فى قوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ : هى كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة:٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[الجمعة:١٠]. وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحى يتصدق منها بالنصف بقوله فى هذه الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ فجزأها نصفين: نصف للمضحى، ونصف للفقراء. والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به؛ لقوله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[الحج:٣٦] وسيأتى الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذى عليه البؤس، والفقير المتعفف. وقال مجاهد: هو الذى لا يبسط يده. وقال قتادة: هو الزَّمِن. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير. وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال ابن عباس: هو وضع الإحرام، من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القُرَظى. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفث: المناسك. وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يعنى: نحر ما نذر من أمر البُدن. وقال مجاهد: نذر الحج والهدى وما نذر الإنسان من شىء يكون فى الحج. وقال عكرمة: حجهم.

---

(١) المسند (٤/ ٣٥٠) وأبو داود (١٧٦٥) ، وصححه الألبانى .

(٢) مسلم (١٢١٨ / ١٤٧) .

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ : قال مجاهد: يعنى: الطواف الواجب يوم النحر. قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمى الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفى الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض[1].

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل البيت الذى بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحِجْر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة. وعن عكرمة أنه قال: إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح. وقال خَصِيف: إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط. وقال مجاهد: أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه. وكذا قال قتادة.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى: هذا الذى أمرنا به من الطاعات فى أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما فى نفسه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أى: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات. قال مجاهد: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

وقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى: أحللنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام. وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى: من تحريم ﴿الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ الآية [المائدة: ٣] ، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ : «من» هاهنا لبيان الجنس، أى: اجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان. وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور. وفى الصحيحين عن أبى بكْرَة، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئا فجلس، فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت[2]. وقوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ أى: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصدا إلى الحق؛ ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

---

(١) البخارى (٣٢٩) ومسلم (١٣٢٨ / ٣٨٠) .

(٢) البخارى (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧ / ١٤٣) .

ثم ضرب للمشرك مثلا فى ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أى: سقط منها، ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أى: تقطعه الطيور فى الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أى: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء فى حديث البراء: «إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحا من هناك». ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث فى سورة «إبراهيم» بحروفه وألفاظه وطرقه [١].

وقد ضرب تعالى للمشرك مثلا آخر فى سورة «الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ الآية [الأنعام: ٧١].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى: هذا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أى: أوامره ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها. وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمّنون. رواه البخارى[٢].

وعن أبى سعيد: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فَحيل يأكل فى سواد، وينظر فى سواد، ويمشى فى سواد. رواه أهل السنن، وصححه الترمذى [٣]، أى: بكبش أسود فى هذه الأماكن. وعن علىٍّ، قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وألا نضحى بمقابَلَة، ولا مدابَرَة، ولا شَرْقاء، ولا خَرْقاء. رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى[٤]. وأما المقابلة: فهى التى قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها. والشرقاء: هى التى قطعت أذنها طولا. والخرقاء: هى التى خَرَقت السِّمَةُ أذنها خرقا مُدَوّراً، والله أعلم. وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز فى الأضاحى: العوراء البيّن عَوَرها، والمريضة البين مَرَضها، والعرجاء البين ظَلَعها، والكسيرة التى لا تُنقى». رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى[٥]. وهذه العيوب تنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعى؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعى وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث. واختلف قول الشافعى فى المريضة مرضاً يسيراً، على قولين. وقال ابن عباس: البدن من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أى: لكم فى البدن منافع، من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال ابن عباس: ما لم يُسَمّ بُدناً. وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديا، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدنة، قال: «اركبها». قال: إنها بَدَنَة. قال:

---

(١) وذلك عند الآية رقم (٢٧) .

(٢) البخارى (١٠ / ١١ فتح) معلقا . وفى المطبوعة : « أبو أمامة عن سهل » وهو خطأ .

(٣) أبو داود (٢٧٩٦) والترمذى (١٤٩٦) وابن ماجه (٣١٢٨).

(٤) المسند (١ / ٨٠) وأبو داود (٢٨٠٤) والترمذى (١٤٩٨) .

(٥) المسند (٤ / ٢٨٤) والترمذى (١٤٩٧) .

«اركبها، ويحك»، فى الثانية أو الثالثة. وفى رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجئتَ إليها»(١).

وقوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أى: مَحِل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥]. وقد تقدم الكلام على معنى «البيت العتيق» قريبا (٢). وقال ابن عباس : كل من طاف بالبيت، فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبحُ المناسك وإراقةُ الدماء على اسم الله مشروعاً فى جميع الملل. قال ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قال: عيداً. وقال عكرمة: ذبحا. ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبر، ووضع رجله على صفاحهما (٣).

وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: معبودكم واحد، وإن تنوّعت شرائع الأنبياء ونَسخَ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته. ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾: قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين، وقال السدى: الوجلين. وأحسن ما يفسّر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: خافت منه قلوبُهم، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ أى: من المصائب ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أى: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أى: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام، بل هى أفضل ما يهدى إليه ، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ الآية: [المائدة: ٢]. قال عطاء: ﴿وَالْبُدْنَ﴾: البقرة، والبعير. وكذا رُوى عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصرى. وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل. قلت: أما إطلاق البَدَنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا فى صحة إطلاق البدنة على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك، ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة

(١) البخارى (١٦٩٠) ومسلم (١٣٢٤ / ٣٧٥) . (٢) عند الآية (٢٩) من هذه السورة .
(٣) سبق تخريجه عند الآيتين (٣٢ ، ٣٤) من هذه السورة .

عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشتركَ فى الأضاحى، البدنةُ عن سبعة، والبقرة عن سبعة[١].

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أى: ثواب فى الدار الآخرة. وعن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما عَمِل ابن آدم يوم النحر عملاً أحبّ إلى الله من هِرَاقة دم، وإنه ليأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطيِّبُوا بها نفسا». رواه ابن ماجه، والترمذى وحسّنه[٢]. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع. وقال إبراهيم النَّخَعِىّ: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾: عن جابر بن عبد الله قال: صليتُ مع رسول الله ﷺ عيدَ الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عنى وعمن لم يُضَحِّ من أمتى». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى[٣]. وروى ابن إسحاق عن جابر قال: ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين فى يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته». ثم سمى الله وكبر وذبح[٤].

وقال ابن عباس: ﴿صَوَافَّ﴾: قياما على ثلاث قوائم، معقولة يدُها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك». وفى الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بَدَنَته وهو ينحرها، فقال: ابعثها قياماً مقيدة سنة أبى القاسم ﷺ[٥]. وفى صحيح مسلم، عن جابر، فى صفة حجة الوَدَاع، قال فيه: فنحر رسولُ الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بَدَنَة، جعل يَطعَنُها بحَربة فى يده[٦]. وقال ابن مسعود: «صوافن»، أى: مُعقَّلة قياما. وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن مجاهد: مَن قرأها «صوافن» قال: معقولة. ومن قرأها ﴿صَوَافَّ﴾، قال: تصف بين يديها.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ قال مجاهد: يعنى: سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعنى: ماتت. وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَن إذا نُحرت حتى تموت وتَبرد حركتها. وقد جاء فى صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحِدَّ أحدكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذَبِيحته»[٧]. وعن أبى واقد الليثى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قُطع من البهيمة وهى حية، فهو ميتة». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى وصححه[٨].

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال بعض السلف: قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر إباحة. وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وَجْه لبعض الشافعية.

واختلف فى المراد بالقانع والمعتر، فقال ابن عباس: القانع: المستغنى بما أعطيته، وهو فى بيته.

---

(١) مسلم (١٣١٨ / ٣٥٠) .
(٢) ابن ماجه (٣١٢٦) والترمذى (١٤٩٣) .
(٣) المسند (٣ / ٣٥٦) وأبو داود (٢٨١٠) والترمذى (١٥٢١) .
(٤) تقدم تخريجه عند الآية (١٦٢) من سورة الأنعام . (٥) البخارى (١٧١٣) ومسلم (١٣٢٠ / ٣٥٨) .
(٦) مسلم (١٢١٨ / ١٤٧) . (٧) مسلم (١٩٥٥ / ٥٧) .
(٨) المسند (٥ / ٢١٨) وأبو داود (٢٨٥٨) والترمذى (١٤٨٠) .

والمعترّ: الذى يتعرض لك، ويُلمّ بك أن تعطيَه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرَظِى. عن ابن عباس: القانع: المتعفف. والمعتر: السائل. وهذا قولُ قتادة، وإبراهيم النَّخَعى. وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم وعِكْرِمَة، والحسن البصرى، وابن الكلبى، ومُقَاتِل بن حيَّان، ومالك ابن أنس: القانع: هو الذى يَقْنع إليك ويسألك. والمعتر: الذى يعتريك، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن. وقال سعيد بن جبير: القانع: هو السائل ، وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذى يطوف. والمعتر: الصديق والضعيف الذى يزور. وعن مجاهد : القانع: جارك الغنى الذى يبصر ما يدخل بيتك. والمعتر: الذى يعتريك من الناس. وعنه: أن القانع: هو الطامع. والمعتر: هو الذى يَعتَر بالبُدْن من غنى أو فقير. واختار ابنُ جرير أنّ القانع: هو السائل؛ لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعترار، وهو: الذى يتعرض لأكل اللحم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة مَن ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزأً ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله منها ،وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. والقول الثانى: أن المضحى يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله فى الآية المتقدمة: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]. فإن أكل الكل فقيل: لا يضمن شيئا. وبه قال ابن سُرَيج من الشافعية. وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها. وهو المشهور من مذهب الشافعى.

وأما الجلود، ففى مسند أحمد عن قتادة بن النعمان فى حديث الأضاحى: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها»[١] . ومن العلماء من رخص فى ذلك، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم .

مسألة:

عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى، ثم نرجع فننحر. فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم لأهله، ليس هو من النسك فى شىء» أخرجاه[٢]. فلهذا قال الشافعى وجماعة من العلماء: إن أول وقت الأضحى إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء فى صحيح مسلم: «وألا تذبحوا حتى يذبح الإمام»[٣]. وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم، فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلى الإمام، والله أعلم. ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار، لتيسر الأضاحى عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر، ويوم بعده للجميع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعى.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: يقول تعالى: من أجل هذا ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أى:

(١) المسند (٤ / ١٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٤ / ٢٩) : «وهو مرسل صحيح» .
(٢) البخارى (٥٥٤٥) ومسلم (١٩٦١ / ٧) .
(٣) انظر : مسلم (١٩٦٠ / ١ ـ ٣ ، ١٩٦١ / ١ ـ ٩) .

ذللناها لكم، أى: جعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم ، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧١-٧٣]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا، لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق لا أنه يناله شىء من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغنى عما سواه .وقد كانوا فى جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ أى: يتقبل ذلك ويجزى عليه .كما جاء فى الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [١] وما جاء فى الحديث: «إن الصدقة لتقع فى يد الرحمن قبل أن تقع فى يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم الحديث [٢]. رواه ابن ماجه، والترمذى وحسّنه عن عائشة مرفوعا. فمعناه: أنه سبق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص فى عمله، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم .

وقوله:﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أى: من أجل ذلك سخر لكم البُدن ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أى: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه، ، وما يرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه .

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: وبشر يا محمد المحسنين، أى: فى عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ماشرعَ لهم، المصدقين الرسولَ فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل .

وأما مقدار سِنّ الأضحية، فقد روى مسلم عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مُسِنَّة، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن» [٣]. والذى عليه الجمهور: إنما يجزئ الثّنى من الإبل والبقر والمعز او الجذع من الضأن، فأما الثنى من الإبل: فهو الذى له خمس سنين ، ودخل فى السادسة. ومن البقر: ما له سنتان ودخل فى الثالثة، وقيل: ما له ثلاث ودخل فى الرابعة. ومن المعز: ما له سنتان. وأما الجذع من الضأن فقيل: ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل فى سِنّه، وما دونه فهو حَمَل .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

ربع

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] . وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أى:

(١) مسلم (٢٥٦٤ / ٣٣) .
(٢) تقدم تخريجه عند الآية (٣٦) من هذه السورة .
(٣) مسلم (١٩٦٣ / ١٣) .

لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة فى العهود والمواثيق، لا يفى بما قال. والكفر: الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

قال ابن عباس: نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة. وقال غير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وغيرهم: هذه أول آية نزلت فى الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية ، وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أخرج النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكُن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، قال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. ورواه الإمام أحمد، وزاد: قال ابن عباس: وهى أول آية نزلت فى القتال. ورواه الترمذى، والنسائى وقال الترمذى: حديث حسن [1].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أى: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلو جهدهم فى طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ .وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. والآيات فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فَعَل.

وإنما شرع الله تعالى الجهادَ فى الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمرَ المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقين لشقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادى ـ يعنون أهل منى ـ ليالى منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنى لم أومر بهذا». فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبى ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَذَرَ مَذَر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومَعْقِلا يلجؤون إليه ـ شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

---

(١) الطبرى (١٧ / ١٢٣) والمسند (١٨٦٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذى (٣١٧١) والنسائى فى الكبرى (١١٣٤٥) .

قال ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعنى: محمداً وأصحابه.

﴿إلاَّ أن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أى: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما فى نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أى: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشفُ شَرَّ أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوى الضعيف﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾: وهى المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم.وقال قتادة: هى معابد الصابئين. وفى رواية عنه: صوامع المجوس،وقال مقاتل بن حَيَّان: هى البيوت التى على الطرق. ﴿وَبِيَعٌ﴾: وهى أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهى للنصارى أيضا، قاله أبو العالية، وقتادة، والضحاك وغيرهم .وحكى عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. والله أعلم. وقوله: ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ قال ابن عباس: الصلوات: الكنائس، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقتادة: إنها كنائس اليهود. وهم يسمونها صلوات .وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين.وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. وأما المساجد فهى للمسلمين.وقوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾: فقد قيل: الضمير فى قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات.وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا. وقال ابن جرير: الصوابُ: لهدمت صوامع الرهبان وبِيعُ النصارى وصلوات اليهود، وهى كنائسهم، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب.

وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧، ٨]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ :وَصَفَ نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شىء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شىء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوىّ العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ .وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات ١٧١ ـ ١٧٣] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾، فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: «ربنا الله»، ثم مكّنّا فى الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهى لى ولأصحابى.

وقال الصباح بن سوادة الكِنْدِىّ: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ الآية، ثم قال: الا إنها ليست على الوالى وحده، ولكنها على الوالى والمولى عليه، الا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم، وبما للوالى عليكم منه؟ إن لكم على الوالى من ذلكم أن يأخذكم

بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتى هى أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزورة ولا المستكره بها، ولا المخالف سرها علانيتها. وقال عطية العوفى: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، كقوله تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه محمد ﷺ فى تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أى: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أى: أنظرتهم وأخرتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى: فكيف كان إنكارى عليهم، ومعاقبتى لهم؟! وفى الصحيحين عن أبى موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٢]»(١).

ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أى: مكذبة لرسلها، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها، أى: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أى: لا يستقى منها، ولا يَرِدُها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال عكرمة: يعنى المُبَيَّض بالجص. وروى عن على بن أبى طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبى المَليح، والضحاك نحو ذلك. وقال آخرون: هو المُنيف المرتفع. وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين. وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يَحْم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بأبدانهم وبفكرهم أيضا، وذلك كاف ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أى: فيعتبرون بها، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أى: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدرى ما الخبر.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝﴾

(١) البخارى (٤٦٨٧) ومسلم (٢٥٨٣ / ٦١).

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أى: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانفال : ٣٢] ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ١٦]

وقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى: الذى قد وَعَد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لاوليائه ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أى: هو تعالى لا يَعجَل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شىء، وإن أجَّلَ وانظَر وأملى؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

روى ابن أبى حاتم: عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام». ورواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى: حسن صحيح[1] . وروى أبو داود عن سعد بن أبى وَقاص، عن النبى ﷺ أنه قال: «إنى لارجو ألا تَعْجِزَ أمتى عند ربها، أن يؤخرهم نصف يوم». قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة[2].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وُقُوعَ العذاب، واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: إنما أرسلنى الله إليكم نذيراً لكم بين يدى عذاب شديد، وليس إلى من حسابكم من شىء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] و﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أى: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حَسَنَةٌ على القليل من حسناتهم. قال محمد بن كعب القُرَظِىّ: إذا سمعتَ الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾: قال مجاهد: يُثَبِّطون الناس عن متابعة النبى ﷺ ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ : وهى النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

(١) الترمذى (٢٣٥٤) والنسائى فى الكبرى (١١٣٤٨) . (٢) أبو داود (٤٣٥٠) وصححه الالبانى .

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق ،وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبش ، ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا . ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسند من وجه صحيح ، والله أعلم . وقد ذكرها محمد بن إسحاق فى السيرة والله أعلم. وقد ساقها البغوى فى تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرَظِىّ، وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالا: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألطفها: أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ ، وليس كذلك فى نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن ﷺ ، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ : هذا فيه تسلية له، صلوات الله وسلامه عليه، أى: لا يَهيدنّك ذلك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء. قال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حدّث ألقى الشيطان فى حديثه، فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته. وقال مجاهد: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ يعنى: إذا قال. وقال الضحاك: إذا تلا. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام. وقوله: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ : حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع. قال ابن عباس: أى فيبطل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما ألقى الشيطان. وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ ﴾ أى: فى تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان.

قال ابن جريج: ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ هم: المنافقون ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾: المشركون. وقال مقاتل ابن حيان: هم اليهود.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أى: من الحق والصواب. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذى يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذى أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: يصدقوه وينقادوا له ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: تخضع وتذل ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفى الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم لا يزالون فى مرية، أى: فى شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير. وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: ﴿منه﴾ أى: مما ألقى الشيطان. ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة﴾: قال مجاهد: فجأة. وقوله: ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾: قال أبى بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقال عكرمة، ومجاهد ـ فى رواية عنهما: هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصرى. وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد؛ ولهذا قال: ﴿الملك يومئذ لله يحكم بينهم﴾، كقوله ﴿مالك يوم الدين﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أى: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم ﴿فى جنات النعيم﴾ أى: لهم النعيم المقيم، الذى لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أى: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾ أى: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين.

ربع

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلبا لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده فى الله ورسوله، ونصرة لدين الله ﴿ثم قتلوا﴾ أى: فى الجهاد ﴿أو ماتوا﴾ أى: حتف أنفهم، أى: من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله: ﴿ليرزقنهم الله رزقا حسنا﴾ أى: ليجزين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿وإن الله لهو خير الرازقين. ليدخلنهم مدخلا يرضونه﴾ أى: الجنة، كما قال تعالى: ﴿فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال ههنا: ﴿ليرزقنهم الله رزقا حسنا﴾، ثم قال: ﴿ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم﴾ أى: بمن يهاجر ويجاهد فى سبيله، وبمن يستحق ذلك ﴿حليم﴾ أى: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فأما من قتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حى عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث فى هذا كثيرة، وأما من توفى فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

وقوله: ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله﴾ ذكر مقاتل وابن جريج أنها نزلت فى

سرية من الصحابة، لقوا جمعاً من المشركين فى شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم فى الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى منبها على أنه الخالق المتصرف فى خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧] ومعنى إيلاجه الليل فى النهار، والنهار فى الليل : إدخاله من هذا فى هذا، ومن هذا فى هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما فى الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما فى الصيف. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية فى أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولما بين أنه المتصرف فى الوجود، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الإله الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شىء فقير إليه، ذليل لديه ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، فكل شىء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذى لا أعظم منه، العلى الذى لا أعلى منه، الكبير الذى لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، وعز وجل عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، وإنه يرسل الرياح، فتثير سحابا، فتمطر على الأرض الجُرُز التى لا نبات فيها، وهى هامدة يابسة سوداء مُمْحلة ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:٥]. وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أى: خضراء بعد يبسها ومحولها. وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى: عليم بما فى أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي

الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾ [لقمان: ١٦] وقال: ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ [النمل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة﴾ الآية [يونس: ٦١]. وقوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد﴾ أى: ملكه جميع الأشياء، وهو غنى عما سواه، وكل شىء فقير إليه، عبد لديه.

وقوله: ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ أى: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار، كما قال: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه﴾ [الجاثية: ١٣] أى: من إحسانه وفضله وامتنانه ﴿والفلك تجري في البحر بأمره﴾ أى: بتسخيره وتسييره، أى: فى البحر العجاج، وتلاطم الأمواج، تجرى الفلك بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ أى: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أى: مع ظلمهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور﴾، كقوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله: ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ [غافر: ١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون مع الله أندادا وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿وهو الذي أحياكم﴾ أى: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا يذكر، فأوجدكم ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ أى: يوم القيامة ﴿إن الإنسان لكفور﴾ أى: جحود.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا. قال ابن جرير: يعنى: لكل أمة نبى منسكا. قال: وأصل المنسك فى كلام العرب: هو الموضع الذى يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها. فإن كان كما قال من أن المراد: ﴿لكل أمة جعلنا منسكا﴾ فيكون المراد بقوله: ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ أى: هؤلاء المشركون. وإن كان المراد: «لكل أمة جعلنا منسكا جعلا قدريا كما قال: ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾ [البقرة: ١٤٨] ولهذا قال هاهنا: ﴿هم ناسكوه﴾، أى: فاعلوه ـ فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أى: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿ وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ أى: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود. وهذه كقوله: ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك﴾ [القصص: ٨٧].

وقوله: ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الاحقاف: ٨] ؛ ولهذا قال : ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ . وهذه كقوله : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ الآية [الشورى: ١٥].

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما فى السموات وما فى الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك فى كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت فى صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء »[1]. وفى السنن ، من حديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»[2]. وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذى يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصى باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شىء علما، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، يعنى: حجة وبرهانا، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧] . ولهذا قال هاهنا: ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أى: ولا علم لهم فيما اختلقوه وافتعلوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولاحجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أى: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون

(١) مسلم (٢٦٥٣ / ١٦) .

(٢) أبو داود (٤٧٠٠) والترمذى (٣٣١٩) وقال : « هذا حديث حسن غريب » ، وصححه الالبانى .

إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿ قُلْ ﴾ أى : يا محمد لهؤلاء: ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم. وقوله :﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى: وبئس النار منزلا ومرجعا وموئلا ومقاما ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أى: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أى: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أى: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ماقدروا على ذلك. كما روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ـ مرفوعا ـ قال: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى، فليخلقوا مثل خلقى ذرّة، أو ذبابة، أو حبّة»[1] وأخرجه صاحبا الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة»[2].

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أى: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذى عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾. قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق. وقال السدى وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى: ماعرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه التى لاتقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: هو القوى الذى بقدرته وقوته خلق كل شىء ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ .إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج:١٢، ١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أى: قد عز كل شىء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقَدَره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى : سميع لأقوال عباده، بصير بهم ، عليم بمن يستحق ذلك منهم ، كما قال:

---

(١) المسند (٧٥١٣) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٥٩٥٣) ومسلم (٢١١١ / ١٠١) .

﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى: يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شىء، كما قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ إلى قوله ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ۞ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۞ ﴾

سجدة

اختلف الأئمة ، فى هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هو مشروع السجودُ فيها أم لا؟ على قولين.

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ اى: باموالكم وانفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أى: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم باكرم رسول، وأكمل شرع ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ اى: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشىء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة ـ التى هى أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين ـ تجب فى الحَضَر أربعاً وفى السفر تُقْصَر إلى ثِنْتَين، وفى الخوف ركعة، وتُصَلى رجالا وركبانا، مستقبلى القبلة وغير مستقبليها. والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، فى سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال ﷺ لمعاذ وأبى موسى، حين بعثهما أميرَين إلى اليمن: «بَشِّرا ولا تنفرا، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا»(١). والأحاديث فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعنى: من ضيق.

وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ :حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوّه به من ذكرها والثناء عليها فى سالف الدهر وقديم الزمان، فى كتب الأنبياء، يتلى على الأحبار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ اى القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عُدولا خيارا، مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لان جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، فى أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أى: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله

(١) البخارى (٣٠٣٨) ومسلم (١٧٣٢ / ٦) .

عليكم فى أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغنى، من إخراج جزء نزر من ماله فى السُّنة للضعفاء والمحاويج . ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ﴾ أى : اعتضدوا بالله، واستعينوا به ، وتوكلوا عليه ، وتأيَّدوا به ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى: حافظكم وناصركم ومُظفركُم على أعدائكم، ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعنى: نعم الولى ونعم الناصر من الأعداء.